ҒТАМР/SRSTI/ГРНТИ 21.41.45

e-mail: redabadran0078@gmail.com

ИСЛАМ МЕН БАТЫС ОЙ-ПІКІРЛЕРІНІҢ АРАСЫНДАҒЫ АДАМИ МІНЕЗ-ҚҰЛЫҚ

Реда Мұхаммад Абдул-хамид Бадран
PhD, Нұр-Мүбарак Египет ислам мәдениеті университеті,
Дағуат пәнінің оқытушысы,
Алматы қ., Қазақстан

السلوك الإنساني بين الإسلام والفكر الغربي

الدكتور رضا محمَّد عبد الحميد بدران
مدرّس الدَّعوة والثَّقافة الإسلاميَّة بجامعة نور مبارك
ألماطي، كازاخستان

HUMAN BEHAVIOR BETWEEN ISLAM AND WESTERN THOUGHT

Dr. Reda Muhammad Abdel-Hamid Badran
Lecturer of Da’wah Studies
Egyptian University of Islamic Culture Nur-Mubarak
Almaty, Kazakhstan

ЧЕЛОВЕЧЕСКОЕ ПОВЕДЕНИЕ МЕЖДУ ИСЛАМОМ И ЗАПАДНОЙ МЫСЛЬЮ

Доктор Реда Мухаммад Абдуль-хамид Бадран
Преподаватель дисциплины «Даъват»
Египетский университет исламской культуры Нур-Мубарак
Алматы, Казахстан

Аңдатпа: Адам мінез-құлқы – ежелден бері қоғам мен өркениетті қызықтырған және әлі де зерттеліп келе жатқан маңызды тақырыптардың бірі. Бұл мінез-құлықты талдап, түзетіп, адамзат қауымының мүддесіне сай бағыттау үшін мол күш жұмсалған. Алайда бұл зерттеулердің көпшілігі сәтсіздікке ұшырады немесе нақты нәтижеге жете алмады. Мұның себебі – адам мен оның мінез-құлқы туралы қате көзқарасқа негізделген бастапқы алғышартта жатыр.

Адамның мінез-құлқы қарапайым әрі санасыз түрде көрініс таппайды, жануарлардағы сияқты инстинктке негізделмеген. Сондықтан адам мінез-құлқын зерттеуді жануарлар мінез-құлқын талдаудан бастау дұрыс емес, бірақ көптеген Батыс зерттеуінде дәл осындай қате әдіс қолданылады.

Түйін сөздер: мінез-құлық, адам, Ислам, батыстық ой-пікірлер.

الملخَّص: موضوع السُّلوك الإنسانيّ من الموضوعات الَّتي شغلت الأمم والحضارات قديمًا وحديثًا وما زال، وقد بذلت جهود كبيرة في دراسة هذا السُّلوك وتحليله لمحاولة تهذيبه وتوجيهه لصالح الجماعة الإنسانيَّة، وقد باءت معظم هذه الدِّراسات بالفشل أو قل لم تحقِّق النَّجاح المطلوب في أرض الواقع، والسَّبب في ذلك يرجع إلى خطأ المقدِّمات الَّتي بنيت عليها هذه الدِّراسات، تلك المقدِّمات الَّتي تتعلَّق بتصوّرها للإنسان والسُّلوك الصَّادر عنه.

إنَّ السُّلوك الإنسانيّ ليس سلوكًا ساذجًا يصدر هكذا بدون وعي أو تقدير كما هو الحال في الحيوان الأعجم، لذلك لا يصحُّ أبدًا أن تكون بدايتنا لدراسة سلوك الإنسان وتفسيره وتوجيهه هي دراستنا لسلوك الحيوان كما هو الحال في معظم الدِّراسات الغربيَّة المتعلِّقة بالسُّلوك الإنسانيّ.

الكلمات المفتاحيَّة: السلوك، الإنسان، الإسلام، الفكر الغربي.

Abstract: Human behavior has been a topic of great interest for civilizations and nations throughout history and continues to be so. Significant efforts have been made to study, analyze, and guide this behavior for the benefit of human society. However, most of these studies have either failed or fallen short of achieving the desired success in practice. The reason for this lies in the flawed premises upon which these studies were based, particularly their understanding of human nature and the behavior that stems from it.

Human behavior is not a simple, unconscious act that occurs randomly, like that of mute animals. Therefore, it is incorrect to begin the study, interpretation, and guidance of human behavior by examining animal behavior, as is the case with many Western studies on human behavior.

Keywords: behavior, human, Islam, western thought.

Аннотация: Человеческое поведение на протяжении всей истории было и остается предметом интереса для цивилизаций и народов. Было приложено много усилий для его изучения, анализа и направления на благо общества. Однако большинство этих исследований либо потерпели неудачу, либо не достигли желаемого успеха на практике. Причина этого заключается в ошибочных предпосылках, на которых основывались данные исследования, особенно в их представлении о природе человека и его поведении.

Человеческое поведение не является простым и бессознательным действием, которое происходит случайно, как у животных. Поэтому неправильно начинать изучение, интерпретацию и направление человеческого поведения с анализа поведения животных, как это часто встречается в западных исследованиях.

Ключевые слова: поведение, человек, Ислам, западный мысль.

المقدِّمة:

السُّلوك الإنسانيُّ سلوك متميّز، ينطلق من عقل الإنسان وقلبه، وتؤثر فيه غرائزه وشهواته، وهو سلوك معقد يصعب على أي باحث - مهما بلغ علمه - أن يدرك أسبابه أو أن يفسِّره تفسيرًا صحيحًا؛ لأنَّ الإنسان أي إنسان عالم وحده، ويستحيل - فيما أعلم - أن يتَّفق اثنان من الناس في السُّلوك والدَّوافع والأفكار والصِّفات والخصائص، وهذا يفسِّر لنا الإخفاق الكبير في معظم الدِّراسات الَّتي قام بها البشر - رغم التَّقدُّم العلمي والإمكانات العلميَّة الهائلة - لتفسير السُّلوك الإنسانيّ وتوجيهه.

وحتى يتحقق للدراسات السلوكية شيء من النجاح ، فلا بد من الإيمان بأن الإنسان خلق خلقاً مستقلاً، وأنه مبتوت الصلة بغيره من الحيوانات التي تشاركه الحياة في هذا العالم، إلا من حيث صدورها جميعًا عن خالق واحد هو الله عز وجل، وأن هذا الخلق المتميز دليل الحكمة والإبداع، ودليل القدرة الخالقة والعناية المحيطة، دليل وجود الله عز وجل الذي خلق الإنسان وخلق له من الملكات والمواهب ما يجعله قادرًا على تلقي الهداية التي هي الطريق الوحيد لاستقامته وسعادته، فالسلوك القويم لا بد أن يستمد من هذا المنهج الإلهي المحيط بكل شيء علمًا. قال الله عز وجل: «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» (الملك/14)، وقال سبحانه وتعالى: «قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» (طه/49، 50).

وأي محاولة لفهم السلوك الإنساني وتفسيره وتهذيبه تبتعد عن هذا المنهج، وعن هداية رب الناس سبحانه وتعالى، فلن تزيد الإنسان إلا جهلاً وضلالا وشقاء، كما هو الحال في المدنية الغربية التي اهتمت بكل شيء إلا بجوهر الإنسان، ورفعت الإنسان إلى أعلى الدرجات فجعلته إلهًا مشرعًا حاكمًا على نفسه وعلى الكون، وانحطت به إلى أقبح الدرجات فدرست ما يصدر عنه من سلوك دراسة حيوانية، وسيظل هذا التخبط والتناقض ما بقي الإنسان بعيدًا عن هداية الله عز وجل.

المبحث الأول: الإنسان في المفهوم الإسلامي والفكر الغربي

يمكننا القول بأن هناك اتجاهات مختلفة لدراسة السلوك الإنساني وتفسيره، أهم هذه الاتجاهات ما يلي:

1 - اتجاه أتباع الأديان[1]

2 ـ اتجاه المنكرين للأديان

وقبل أن نبين موقف كلا الاتجاهين من السلوك الإنساني لا بد أن نبين مفهوم الإنسان في كل منهما

أولاً: الإنسان في مفهوم أتباع الأديان

يعتقد أتباع الشرائع الإلهية - ومعهم المؤمنون بالله من سائر الملل والنحل - أن الكون بما فيه من إنسان وحيوان وجماد وعوالم كثيرة لا يمكن حصرها مخلوق بقدرة الله عز وجل، على خلاف بينهم في تصور طبيعة هذه القدرة الخالقة وتصويرها (الله)، كما يعتقد أتباع الوحي الإلهي أن الإنسان خلق خلقًا مستقلًا متميزًا عن غيره من الكائنات التي خلقها الله عز وجل [2] قال الله عز وجل: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ

1 (الدين عند الله واحد وهو: الإسلام. قال الله تعالى: «إن الدين عند الله الإسلام « (آل عمران :19)، وقال سبحانه وتعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ» (الشورى/ 13). هذا بالنظر إلى حقيقة الدين ومصدره، أما بالنظر إلى المعنى اللغوي وما عليه الناس: فهي أديان يقال دان بالشيء أي اتخذه دينًا) ينظر: الدين د/ محمد عبد الله دراز ص31 – ط: دار القلم – الكويت – الرابعة – 1419هـ / 1999م.

2 اعتمدت في بيان موقف أتباع الوحي الإلهي على القرآن الكريم؛ لأنه كما يقول الدكتور عمارة نجيب: آخر الكتب الموحى بها؛ ولأنه ثبت عدم تعرضه للتحريف؛ ولأنه دُوِّن في عصر الرسالة بعكس الكتب الأخرى. ينظر: الإنسان في ظل الأديان. د/ عمارة نجيب ص47 ط: المكتبة التوفيقية – القاهرة . 1977م.

فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (البقرة/29-39).

يقول الدكتور عمارة نجيب: «لم يكتف القرآن ببيان أصل الإنسان، وأنه نشأ من طين، بل ذهب ليبين كيف تهيأ هذا المخلوق لعمارة الأرض، وكيف تكيَّف مع ما حوله ـ وهو الضعيف العاجز ـ فبين أن الخالق (سبحانه وتعالى) جهزه لهذه المهمة في تكوينه، وخلقه وحده دون بقية الكائنات على نحو خاص، ولم يتركه للصدفة ولا للطبيعة والتطور الطبيعي، فأعطاه القلب الذي يعقل به، ويدرك ويفهم، ويتطور، ويطور، عن طريق العلم والتعلم منذ الوهلة الأولى لنشأته، كما أمده بالعلم حيث لا معلم غير الخالق في ذلك الوقت، فعلمه بالنظرية وبالتجربة، علمه بالنظرية عن نفسه أن طبيعته تحمل الاتجاهين اتجاه الخير واتجاه الشر «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ» (البلد/10)، وأن اتباع دعوة الخير توصله إلى الراحة والسعادة، واتباع دعوة الشر توصله إلى الجوع والعري والخوف والشقاء «فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا» (طه/123-124) وعلمه بالنظرية أيضًا الكثير عن ما حوله، وبين له أن مصدر دعوة الخير هو الوحي واتباع ما يأمر به الخالق والانتهاء عن ما ينهى عنه، وأن مصدر دعوة الشر هو إبليس الذي يأمر بعصيان الخالق سبحانه وتعالى».[3]

ثانيًا: الإنسان في مفهوم المنكرين للأديان

وهؤلاء لا يؤمنون بأن لهذا الكون إلهًا خالقًا مدبرًا، فالكون أو الطبيعة هي التي أوجدت نفسها! فلا يؤمنون إلا بالمحسوس المشاهد، وينكرون أي علم أو حقيقة لا تدركها حواسهم! و»الطبيعة في الفلسفة المادية الملحدة وجدت هكذا بنفسها، وكذلك سننها أو قوانينها فهي مقدرة بنفسها من غير مقدر لها، والعقل وحده طريق معرفة الحقائق وليس ثمة طريق آخر، وليست المثل الأخلاقية والقيم والمفاهيم الحقيقية إلا وقائع أو حوادث كالحوادث الطبيعية نشأت وتطورت، فهي ليست ثابتة، والإنسان نفسه إنما هو حيوان اجتماعي مفكر وليست النفس الإنسانية إلا مجموعة من الغرائز».[4]

وحتى من يؤمن منهم بقوة غيبية خالقة لهذا الكون، يرون أن علاقة هذه القوة الخالقة بهذا الكون هي مجرد الخلق والإيجاد فقط.

طبيعة السلوك الإنساني في مفهوم أتباع الأديان

الإنسان في مفهوم أتباع الأديان خلق خلقًا متميزًا، والسلوك الذي يصدر عن هذا الإنسان هو سلوك متميز يختلف عن سلوك غيره من الكائنات بأشياء كثيرة منها:

الاختيار ومعناه: القدرة على فعل الشيء أو تركه، والإرادة الضابطة بمعنى أنه يستطيع أن يتحكم في سلوكه فيمتنع عن أفعال معينة مع القدرة عليها، ومنها العقل والتفكير وهو من أهم ما يميز الإنسان؛ ولأجله كرم الإنسان على سائر الكائنات، قال الله تعالى: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا» (الإسراء/70). قال الإمام الرازي (رحمه الله):[5](قوله «وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا» وهنا بحثان: البحث الأول ـ أنه قال في أول الآية: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ»، وقال في آخرها: «وفضلناهم» ولا بد من الفرق بين التكريم والتفضيل وإلا لزم التكرار، والأقرب أن يقال: إنه تعالى فضل الإنسان على سائر الحيوانات

3 الإنسان في ظل الأديان ص 51.

4 مناهج البحث في العلوم الإسلامية. د/ مصطفي حلمي . ص 201 . ط: مكتبة الزهراء . القاهرة . الأولى 1404 هـ - 1984 م.

5 أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الرازي: ولد سنة 544 هـ وقيل 543 هـ بالري . وتبحر في العلوم العربية والفقه والمنطق وغير ذلك - وله مؤلفات عديدة في التفسير والعقيدة وأصول الفقه - وتوفي سنة 606 هـ - ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أخبار الزمان لابن خلكان (ج 4 ص 296) - دار الكتب العلمية - بيروت - الأولى - 1419هـ/ 1998م.

بأمور خلقية طبيعية ذاتية مثل العقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة، ثم إنه تعالى عرضه بواسطة ذلك العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة، فالأول هو: التكريم، والثاني هو: التفضيل).[6]

والنفس الإنسانية التي تصدر عنها أفعال الإنسان مركب فيها الخير والشر والاستقامة والفجور، قال الله عز وجل: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» (الشمس/7، 8)، والطريق الوحيد لضبط سلوك الإنسان واستقامته هو اتباع الوحي الإلهي المنزل لهداية الناس، قال الله عز وجل: «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا» (الإنسان/3)، قال الفخر الرازي (رحمه الله): «السبيل» هو الذي يُسلك من الطريق، فيجوز أن يكون المراد بالسبيل ههنا سبيل الخير والشر والنجاة والهلاك، ويكون معنى هديناه، أي عرفناه وبينا كيفية كل واحد منهما له، كقوله تعالى: «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ» (البلد/10)، ويكون السبيل اسما للجنس، فلهذا أفرد لفظه كقوله تعالى: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ» (العصر/2).

ويجوز أن يكون المراد بالسبيل هو سبيل الهدى لأنها هي الطريقة المعروفة المستحقة لهذا الاسم على الإطلاق. أما سبيل الضلالة فإنما هي سبيل بالإضافة، ألا ترى إلى قوله تعالى: «وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا» (الأحزاب/67)، وإنما أضلوهم سبيل الهدى، ومن ذهب إلى هذا جعل معنى قوله «هديناه «: أي أرشدناه وإذا أرشد لسبيل الحق، فقد نبه على تجنب ما سواها، فكان اللفظ دليلا على الطريقين من هذا الوجه ...، (و) المراد من هداية السبيل: خلق الدلائل، وخلق العقل الهادي، وبعثة الأنبياء، وإنزال الكتب، كأنه تعالى قال: خلقتك للابتلاء ثم أعطيتك كل ما تحتاج إليه ليهلك من هلك عن بينة ...).[7]

طبيعة السلوك الإنساني في مفهوم المنكرين للأديان

الإنسان في نظر الماديين لا يختلف كثيرا عن الحيوان، خاصة في غرائزه ودوافعه، فهو في نظرهم لم يخلق خلقا مستقلا، ولم يلق أي عناية أو رعاية تميزه عن غيره من الكائنات، فهو حيوان في مأكله ومشربه وتلبيته لرغباته وشهواته.

أثر نظرية دارون على الفكر الغربي عامة وعلى الدراسات السلوكية خاصة:

أحدثت نظرية «التطور» التي قال بها العالم الإنجليزي تشارلز دارون (1809-1882 م) تحولاً كبيرا في الدراسات الإنسانية وفي الفكر الغربي عامة، وقد ذهب دارون من خلال رحلاته وتجاربه إلى أن الكائنات الحية في تطور دائم على أساس الانتخاب الطبيعي، وبقاء الأصلح، فتنشأ الأنواع بعضها من بعض، ولا سيما النوع الإنساني الذي انحدر عن أنواع حيوانية.[8]

ولست بصدد ذكر كلام العلماء في إبطال هذه النظرية المادية [9] ولكن يريد الباحث أن ينبه على أن هذه النظرية (الحيوانية) كانت هي الأساس الذي قامت عليه الدراسات الغربية للسلوك الإنساني، (يقول التاريخ الأوربي: إن نظرية دارون كانت نقطة تحول في تاريخ العلوم، وأنها أثرت في اتجاه التفكير البشرى بحيث يمكن تتبع آثارها في كل ما أنتجه العلماء في العهود الأخيرة وهذا صحيح، وقد تأثر بها فرويد وأول ما يبدو من هذا التأثر هو

6 مفاتيح الغيب للفخر الرازي ج 11 جزء 21 ص 13 – دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى – 1411هـ/ 1990م.
7 ينظر: مفاتيح الغيب ج 15 جزء 30 ص 211/210.
8 العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية. د/ فرج الله عبد الباري – ص 78 – ط: مكتبة الأزهر الحديثة بطنطا – الثانية – 1420هـ/ 2000م.
9 ألّف في نقد نظرية التطور كتب كثيرة لعلماء ومفكرين مسلمين وغير مسلمين، ومن أهم الكتب التي وقف عليها الباحث «الإنسان في ظل الأديان»، د/ عمارة نجيب، «العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية»، د/ فرج الله عبد الباري.

نظرته للإنسان على أنه مخلوق أرضي عالمه كله محصور في هذا النطاق الضيق القريب.

ولكن هذا ليس كل شيء، فقد تأثر به من زاوية أخرى حيث أزال عن الإنسان ما كان يحوطه من «كرامة إنسانية»، ومن رفعة وشفافية وروحانية، وذلك على اعتبار أن رعاية الله لهذا المخلوق وتكريمه له، خرافة كبيرة نتجت من الخرافة الكبرى المتصلة بخلق آدم.

وتأثر من زاوية ثالثة حين تابعه في قوله: إن غرائز الإنسان هي الامتداد الطبيعي لغرائز الحيوانات السابقة له في سلم الصعود، مضافًا إليها قدر من التطور، هو القدر الذي نتج من الظروف التي صادفت الجد الأعلى للإنسان فأثرت فيه، وأنتجت فيه الكائن البشرى على مر الأيام.

ومن هذا نجد أن نظريات فرويد هي الامتداد الطبيعي لنظرية دارون، أو هي تخصيص لها في ميدان الإنسان ..) [10]

وقد ساعدت هذه النظرية - نظرية التطور - في سيطرة الروح المادية، وتم رفض كل ما ينتسب إلى الدين من العلوم والمعارف بدعوى مخالفتها للعلم ومنهاجه، وقد واكب انتشار الفكر المادي في المجتمع الغربي تقدم كبير في مجال العلوم الطبيعية، مما أدى إلى تيسير حياة الناس المادية بصورة كبيرة، وأمام هذا التقدم الكبير في علوم المادة سيطر الغرور على نفوس الغربيين، وظنوا أن مشكلات الإنسان وقضاياه يمكن أن تحل باستخدام المنهج العلمي التجريبي وأن هذا هو السبيل الوحيد لسعادة الإنسان.

المبحث الثاني: أسباب إخفاق الدراسات النفسية والسلوكية في المجتمع الغربي

بعد أن سيطر الفكر المادي على المجتمع الغربي تحولت النظرة إلى الإنسان فأصبح جزءًا من العالم تسري عليه قوانين المادة فقط، مع إهمال كامل لكيان الإنسان الحقيقي وخصائصه التي تميزه عن غيره من الكائنات. يقول الدكتور توفيق الطويل في مقال له تحت عنوان «مشكلة العلوم الاجتماعية أنها ليست علوماً»: (كان الطبيعيون من العلماء يقولون: إن أي دراسة في مجال العلوم الاجتماعية لا تكون علمية ما لم تستخدم فيها المناهج التجريبية وحدها، وبمقدار نجاح البحث السيكولوجي أو السوسيولوجي في اصطناع هذه المناهج يكون حظه من خصائص البحث العلمي، وكل بحث يصدر عن الذات وأهوائها ولا يتصف بالموضوعية يستبعد من نطاق البحث العلمي الذي يحرص على أن يستبدل بالكيفيات (أي الصفات التي لا تقاس) كميات عددية، وليس للعلم لغة إلا الرياضيات، أي الأرقام، ومن هنا وجدت الأجهزة والآلات التي تحول الصفات إلى أعداد أو أرقام، ولهذا ألحّ العلماء الطبيعيون في أن تقتصر العلوم الاجتماعية على الدراسات التجريبية التي تهتم بالعلاقات الرياضية للظاهرة التي تدرسها.

لكن خصوم النزعة الطبيعية قد ناهضوا هذه النزعة في العلوم الاجتماعية، قائلين: إن طبيعة الموضوعات التي تعالجها العلوم الاجتماعية لا تتيسر معالجتها بالمناهج التجريبية، ومن هنا اختلفت القوانين التي تنتهي إليها الطائفتان، فقوانين العلوم الطبيعية دقيقة، وعامة، وتتخطى الزمان والمكان ... وإن اعتبرت في القرن العشرين احتمالية ترجيحية وليست يقينية؛ لأن الحتمية قد اهتزت في قرننا هذا، لكنها ترجيحية تقارب اليقين وتظل صادقة حتى يثبت بطلانها، بينما نلاحظ أن قوانين العلوم الاجتماعية تعوزها الدقة والضبط إلى جانب أنها مقيدة إلى حد كبير بظروفها وأحوالها، وتكثر فيها الحالات الاستثنائية، هذا إلى جانب أسباب أخرى يرى اللا طبيعيون أنها تعوق استخدام المناهج التجريبية في العلوم الاجتماعية نجملها فيما يلي:

أولها: حرية الإرادة البشرية لأنها تتدخل في سير الظواهر الإنسانية وتتكفل بتغيير مجراها تغييرا يتعذر معه إخضاعها لقانون علمي ثابت،

10 الإنسان بين المادية والإسلام. أ. محمد قطب ص 24 – ط: دار الشروق – العاشرة – 1409هـ – 1989م.

ولهذا تيسر التنبؤ العلمي في مجال العلوم الطبيعية واستعصى على وجه الدقة في مجال العلوم الاجتماعية، وأحكام الناس كثيرا ما تتأثر بعوامل لا تتمشى مع منطق العقل، فتفسد على العقل ما كان يتوقعه.

ثانيها: أن التجربة تؤدي دورًا رئيسًا في كشف القوانين الطبيعية، بينما يتعذر إجراء التجارب في مجال العلوم الاجتماعية إلا في نطاق ضيق محدود، بحيث لا يكون من المعقول إقامة منهج البحث على أساسها.

ثالثها: أن القوانين الطبيعية تصدق عادة في كل زمان ومكان، أما مقررات العلوم الاجتماعية فتشير - على عكس هذا - إلى ظروف شخصية تاريخية.

رابعها: أن قوانين العلوم الاجتماعية المزعومة ليست موضوعية خالصة، بمعنى أنها لا تكون صادقة بما هي كذلك؛ لأن الباحث الاجتماعي لا يستطيع أن يتجرد من أهوائه وميوله ومصالحه، بل هو ينظر إلى موضوعه الذي يتصل حتما بالإنسان من خلال عقيدته، وثقافته، وتقاليد وطنه، ونحو ذلك من عوامل تتلف نزاهته، وتحمله على أن يتأثر في بحثه بعوامل ذاتية، أما في العلوم الطبيعية فإن تجرد الباحث عن ميوله، وأهوائه ميسور عند علاج موضوعاتها، ومن هنا أمكن أن يكون البحث العلمي موضوعيًّا وليس ذاتيًّا.

خامسها: أن الدقة في العلوم الطبيعية مرجعها إلى صورتها الرياضية؛ لأن من الميسور أن تقاس مقاديرها الكمية، أما في العلوم الاجتماعية، فليس من الميسور إخضاع موضوعاتها للضبط الكمي ويستحيل تصويرها بالمعادلات الرياضية الدقيقة؛ ولهذا قال بعض أهل العلوم الاجتماعية: إن علومهم لا تكون قط عامة لأنها لا تخلو من الاستثناءات التي لا تدخل في صيغتها.[11]

فمشكلة العلوم السلوكية - كما نبه كثير من المحققين - أنها تتأثر تأثرًا كبيرًا بذاتية الباحثين وثقافتهم وأهوائهم وتطلعاتهم، لذلك لا يمكن أن يتفقوا على منهج واحد، ولا الوصول إلى نتيجة واحدة، وهذا هو السبب الذي دعى روبرت مرتون.[12]لأن يعترف بأن في الولايات المتحدة خمسة آلاف عالم، لكل واحد منهم علم الاجتماع الذي يخصه وحده، وذلك نتيجة تعدد العقائد الخاصة بكل عالم، رغم انتماء غالبيتهم إلى عقيدة المجتمع الرأسمالي.[13]

أسباب تخلف العلوم الإنسانية من وجهة نظر عالم غربي كبير

لقد استوقف التقدم الكبير والمدهش في علوم المادة مع التأخر الملحوظ في مجال العلوم الإنسانية جماعة من العلماء الغربيين من أمثال العالم الكبير الدكتور ألكس كاريل[14] الذي حاول البحث عن أسباب علمية لهذا التأخر الكبير في مجال الدراسات الإنسانية رغم الإمكانات الكبيرة والجهود الكثيرة في هذا الميدان.

يرى هذا العالم الكبير «أن هناك فارقًا أساسيًّا بين علوم المادة وعلوم الحياة، وأن هناك بالذات فارقًا أساسيًّا بين طبيعة علوم المادة وطبيعة علم الإنسان، وبين طبيعة موقف العقل من هذه وتلك، وأن هذا الفارق كامن في أمرين لا يتعلقان ببيئة ولا زمان، ولا بظروف وقتية مرهونة بالزمان والمكان .. هما:

11 قضايا في رحاب الفلسفة والعلم د/ توفيق الطويل ص 112/110. ط : دار النهضة العربية – القاهرة – 1986م.

12 روبرت مرتون: أحد علماء الاجتماع الأمريكيين المعاصرين. ينظر: الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع الدواعي والإمكان أ. منصور زويد المطيري. ص: 71. سلسة: كتاب الأمة. قطر. يناير 1993م.

13 ينظر: الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع ص 71.

14 عالم وطبيب فرنسي كبير درس في جامعة ليون عدة أعوام ورحل إلى الولايات المتحدة واشتغل في معهد روكفلر للأبحاث العلمية بمدينة نيويورك. ومنح جائزة نوبل عام 1912 م لأبحاثه الطبية الفذة. الإسلام ومشكلات الحضارة أ. سيد قطب. ص: 9. ط: دار الشروق. الثانية عشرة. 1422 هـ/ 2001م.

-1 تعقد الموضوع [15]
-2 طبيعة تركيب عقولنا [16]

ثم يعلق الأستاذ سيد قطب[17] فيقول:هذا الواقع العلمي عن الجهل المطبق بالإنسان مع العلم النسبي بالمادة نتيجة متوقعة، وثمرة طبيعية لحقيقة دور الإنسان في الأرض وغاية وجوده الإنساني في الكون كما تبدو من خلال التصور الإسلامي، والإسلام يرتب على هذه الحقيقة نتائجها، فيطلق يد الإنسان في عمارة الأرض، واستخدام طاقاتها وخاماتها .. بينما هو يضع لهذا الإنسان منهج حياته، الذي يحكم هذه الحياة ولا يكل إليه هو وضع هذا المنهج، لأنه مزود بطاقات معينة ليتحكم في المادة عن علم - نسبى طبعًا - بينما هو غير مزود بمثل هذه الطاقات لمعرفة نفسه حتى يتحكم في أمرها عن علم كما يتحكم في المادة.[18]

15 يرى الدكتور كاريل أن الدراسات السلوكية ما تزال في بدايتها . رغم التقدم العلمي الهائل . فهي ما تزال في المرحلة الوصفية، والسبب في ذلك أن «الإنسان كل لا يتجزأ وفي غاية التعقيد، ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له – وليست هناك طريقة لفهمه في مجموعه – أو في أجزائه في وقت واحد. ولكي نحلل أنفسنا فإننا مضطرون للاستعانة بفنون مختلفة – وإلى استخدام علوم عديدة. ومن الطبيعي أن تصل كل هذه العلوم إلى رأي مختلف في غايتها المشتركة، فإنها تستخلص من الإنسان ما تمكنها وسائلها الخاصة من بلوغه فقط – وبعد أن تضاف هذه المستخلصات بعضها إلى بعض – فإنها تبقى أقل غناءً من الحقيقة الصلبة .. إنها تخلف وراءها بقية عظيمة الأهمية بحيث لا يمكن إهمالها. ينظر: الإسلام ومشكلات الحضارة ص14 نقلاً عن الإنسان ذلك المجهول ل «كاريل».

16 يرى الدكتور كاريل: أن طبيعة الإنسان هي التي تحدد نظرته إلى الأشياء وهذه الطبيعة تختلف عند كل الناس تقريبًا يقول: وكل آرائنا عنه (الإنسان) مشربة بالفلسفة العقلية .. وهذه الآراء جميعا تنهض على فيض من المعلومات غير الدقيقة – بحيث يراودنا إغراء عظيم لنختار من بينها ما يرضينا ويسرنا فقط – ومن ثم فإن فكرتنا عن الإنسان تختلف تبعا لإحساساتنا ومعتقداتنا) (10، ص 15–16).

17 السيد قطب: أديب ومفسر من أهل مصر تخرج في كلية دار العلوم بالقاهرة وعين مدرسًا للغة العربية وأوفد في بعثة لدراسة برامج التعليم في أمريكا، ولما عاد انتقد البرامج المصرية، وطالب ببرامج تتمشى والفكرة الإسلامية – وبنى على هذا استقالته 1934م – وانضم إلى الإخوان المسلمين (جماعة دعوية اتخذت منهج العنف والتطرف في الوصول إلى السلطة) فترأس قسم نشر الدعوة بها، وسجن معهم إلى أن صدر الحكم بإعدامه فأعدم 1387هـ – 1967م. ينظر: معجم مصنفي الكتب العربية : أ/ عمر رضا كحالة (ص 216) – ط: الرسالة – الأولى – 1406هـ/ 1986م.

18 الإسلام ومشكلات الحضارة أ. سيد قطب ص 25/24 بتصرف.

مصادر البحث

1. الدين د/ محمد عبد الله دراز – ط: دار القلم – الكويت – الرابعة – 1419هـ/ 1999م.
2. الإنسان في ظل الأديان. د/ عمارة نجيب ط: المكتبة التوفيقية – القاهرة – 1977م.
3. مناهج البحث في العلوم الإسلامية. د/ مصطفي حلمي – ط: مكتبة الزهراء – القاهرة – الأولى 1404 هـ/ 1984م.
4. وفيات الأعيان وأنباء أخبار الزمان لابن خلكان – دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى – 1419هـ/ 1998م.
5. مفاتيح الغيب للفخر الرازي ج 11 جزء 21. دار الكتب العملية – بيروت – الأولى. 1411هـ/ 1990م.
6. العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية. د/ فرج الله عبد الباري - ط: مكتبة الأزهر الحديثة بطنطا - الثانية. 1420هـ / 2000م.
7. الإنسان بين المادية والإسلام. أ. محمد قطب - ط: دار الشروق - العاشرة. 1409هـ/ 1989م.
8. قضايا في رحاب الفلسفة والعلم. د/ توفيق الطويل - ط: دار النهضة العربية - القاهرة. 1986م.
9. الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع الدواعي والإمكان. أ. منصور زويد المطيري - سلسة: كتاب الأمة - قطر. يناير 1993م.
10. الإسلام ومشكلات الحضارة أ. سيد قطب. ط: دار الشروق - الثانية عشرة - 1422 هـ/ 2001م.
11. معجم مصنفي الكتب العربية: أ. عمر رضا كحالة. ط: الرسالة - الأولى. 1406هـ/ 1986م.